الدرس (٠٣٠) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد للّه رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا نزال في باب اليقين والتوكل على الله سبحانه وتعالى من كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رحمه الله تعالى.

قال المصنف أبو زكريا يحيى بن شرف النووي رحمه الله تعالى:

٨٠- (السَّابع: عَنْ أَبِي عُمَارَةَ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا فُلَانُ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَقُلِ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ؛ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنَّكَ إِنْ مِتَّ مِنْ لَيلَتِكَ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيْرًا**» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِذَا أَتَيْتَ مَضْجِعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيمَنِ، وَقُلْ:...**» وذَكَرَ نَحْوَهُ ثُمَّ قَالَ: «**وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ**»(١)).

هذا الحديث قد اشتمل أوَّلًا على بعض الآداب الَّتِي يحسن بالمسلم أن يحافظ عليها عندما يأوي إلى فراشه لينام:

وأوَّل ذلك: ما أرشد إليه النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في هذا الحديث: بأن يتوضَّأ المسلم وضوءه للصَّلاة، وذلك ليكون نومُه على أكمل أحواله ، وكذلك: ليكون في أذكاره للنَّوم

---

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٧)، (٧٤٨٨)، ومسلم (٢٧١٠).

على طهارة، فيكون ذاكرًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عند نومه على طَّهارة، وهي الحال الأكمل للمسلم في ذكره لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وأيضًا: وجَّه النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المسلم إلى أن ينام على شقِّه الأيمن، وهي أكمل أحوال المسلم في نومه، ثمَّ أرشده إلى هذه المناجاة العظيمة الَّتِي هي دعاءٌ وسؤالٌ وإقبالٌ على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وتوسُّلاتٌ عظيماتٌ مباركات.

وعندما نتأمَّل هذه الدَّعوات نجد أنَّها اشتملت على معانٍ جليلة، ومقاصدَ عظيمة، يحسن بالمسلم عندما يدعو بهذا الدُّعاء أن يكون مستحضرًا لهذه المعانِي والمقاصدِ الَّتِي اشتمل عليها هذا الدُّعاء.

بدأه بقوله صلى الله عليه وسلم: «**اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ**» أي: أنا يا الله قد رضيت تـمام الرِّضا أن تكون نفسي تحت مشيئتك، تتصرَّف فيها بما شئت، وتقضي فيها بما أردت من إمساكها أو إرسالها، والأمر كله من قبل ومن بعد لك.

قوله: «**وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ**» هذا فيه إقبال المسلم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالإخلاص وحسن التَّوجُّه، وقصد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحده بالعمل، ومنه قول الله – سبحانه وتعالى –: {وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى}

وقوله: «**وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ**» أي: جعلت شأني كلَّه إليك، وهذا فيه: الاعتماد على الله، والتَّوكُّل التَّامُّ عليه. وهو موطن الشَّاهد من الحديث، ففيه أنَّ المسلم مطلوب منه التَّوكُّل على الله حتَّى في نومه.

وقوله: «**وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ**» إلجاء الظَّهر معناه: أسندته إلى حفظك ورعايتك، لما علمتُ أنَّه لا سند يُتقوَّى به سواك.

وقوله: «**رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ**» أي: إنَّني أقول هذا الدُّعاء وأنا راغبٌ راهبٌ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقوله: «**لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**» أي: لا ملاذ ولا مهرب ولا مفرَّ منك إلَّا إليك، كما قال الله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذَّاريات:٥٠].

وقوله: «آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ؛ وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ» أي: آمنت بهذا الكتاب العظيم القرآن، الَّذِي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكذلك آمنت بهذا النَّبِيِّ العظيم، الَّذِي أرسلته رحمةً للعالمين ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب:٤٥-٤٦].

ثمَّ أخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّ مَن أتى بهذا الدُّعاء ومات من ليلته، مات على الفطرة، أي: على الإسلام، فالإسلام هو دين الفطرة، وإن أصبح أصاب خيرًا، أي: إن لم يمت من ليلته، وأدرك الصَّباح؛ أصاب في الصَّباح خيرًا عظيمًا، وهذا يدلُّ على فضل هذا الدُّعاء العظيم.

وقوله في تمامه: «وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ» فيه استحباب أن تكون هذه الدَّعوة آخر الدَّعوات والأذكار الَّتِي يقولها المسلم عند نومه.

وعلى كلٍّ؛ فهذه دعوة عظيمة جليلة، ينبغي على المسلم أن يحافظ عليها كُلَّ ليلة عندما يأوي إلى فراشه لينام، وأن يحافظ على آداب النَّوم العظيمة الَّتِي اشتمل عليها هذا الحديث.

وكم هو جميل بالمسلم قبل أن يغمض عينيه لينام أن يستحضر هذه الأصول العظيمة، لينام على الفطرة والإيمان وتوحيد الله، بينما غيره ينام على هموم الدُّنيا وغمومها.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨١- (الثَّامِن: عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَبْدِ اللهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ عَامِرِ بْنِ عَمْرِ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَيْمِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بْنِ غَالِبٍ القُرَشِيِّ التَّيْمِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -وَهُوَ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ صَحَابَةٌ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ المُشْرِكِينَ وَنَحْنُ فِي الغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا. فَقَالَ: «مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!» مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[٢]).

هذا الحديث العظيم فيه بيانُ كمالِ يقين النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وثقتِه بالله، وعظمِ توكُّله على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولنتأمَّل في موقفه هذا العجيبِ العامرِ بالطمأنينة والثقة بالله وكفايته

---

(٢) رواه البخاريُّ (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).

لعبده! فالكُفَّار الَّذِين يبحثون عنه قاصدين قتله كانوا على مقربةٍ منه، بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآه، وكان هو عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه في الغار، يقول أبو بكر رضي الله عنه: (نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ المُشْرِكِينَ وَنَحْنُ فِي الغَارِ وَهُمْ عَلَى رُؤُوسِنا)، مما يدل على عظم الخطب قال رضي الله عنه: (فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا!).

فتأمَّل في هذا الموقف العصيب ماذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟ قال «**مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟!**» وهذا هو اليقين والثِّقة بالله واستشعار المعيَّة الخاصَّة معيَّةِ الله لأصفيائه وأوليائه نصرًا وتأييدًا وحفظًا، ودفعًا للشَّرِّ وكيد الأعداء، ففيه بيان كمال يقين النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وأنَّ المسلم ينبغي عليه أن يتأسَّى به، ويُرَبِّي نفسه على الاقتداء بهديه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في توكُّله ويقينه والتجائه إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد جعله الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين أسوةٌ.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨٢- (التَّاسِع: عَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ أُمِّ سَلَمَةَ وَاسْمُهَا هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ حُذَيْفَةَ المَخْزُومِيَّةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ: «**بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**» حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُد والتِّرْمِذِيُّ[٣] وغيرُهما بأسانيد صحيحةٍ. قَالَ التِّرمذيُّ: «حديثٌ حسنٌ صحيح»، وهذا لفظ أبي داود).

في هذا الحديث هذا الذِّكرُ العظيم الَّذِي يُشْرع أن يقوله المسلم عندما يخرج من بيته، وبدأه بالاستعانة بالله: «**بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ**» وهذه كلمة استعانة والتجاء إلى الله، وطلب المَدِّ والعون منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ثمَّ أتبع ذلك بهذه التَّعوُّذات العظيمة: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ...**» إلى آخر ما جاء في الحديث.

---

(٣) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، والتِّرمذيُّ (٣٤٢٧)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألبانيُّ.

والتَّعوُّذ اعتصامٌ بالله، والتجاءٌ إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي هذا الدُّعاء يلتجئ العبد إلى الله أن يحميه من أن يقع في شيءٍ من هذه الأمور المذكورة، سواء أن تقع منه تجاه الآخرين، أو تقع من الآخرين تجاهه، فيتعوَّذ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك كلِّه.

وقوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ» فيه تعوُّذ بالله من الضَّلال، «أَنْ أَضِلَّ» أي: أن أضلَّ في نفسي، «أَوْ أُضَلَّ» يُضِلَّني غيري من شياطين الإنس والجنِّ.

وقوله: «أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ» من الزَّلَّة وهي العثرة، بأن أقع في الزَّلل من نفسي، أو أن يوقعني غيري فيه.

وقوله: « أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ» من الظُّلم، سواء أن يظلم هو الآخرين، أو أن يظلمه الآخرون.

وكذلك قوله: « أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ» من الجهل الَّذِي هو ضدُّ العلم، سواء أن يفعل هو بغيره أفعال الجهلاء، أو يفعل به الآخرون أفعال الجهلاء من السَّفاهة والوقاحة والسِّباب، وغير ذلك.

ولا شكَّ أنَّ المسلم في كُلِّ مرَّة يخرج من بيته، سيكون عرضةً للمخالطة والمعاشرة، ويخشى أن يقع في شيءٍ من هذه الأمور، فكم هو جميلٌ بالمسلم في كُلِّ مرَّةٍ يخرج فيها من بيته، أن يأتي بهذه الدَّعوة العظيمة المباركة المأثورة عن نبيِّنا الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لتكون عصمة له وسلامة.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨٣- (العَاشِر: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَالَ -يَعْنِي: إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ-: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، يُقَالُ لَهُ: هُدِيْتَ وَكُفِيْتَ وَوُقِيْتَ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُد والتِّرمذيُّ والنَّسائِيُّ وغيرُهم(٤)، وقال التِّرمذيُّ: «حديثٌ

(٤) رواه أبو داود (٥٠٩٥)، والتِّرمذيُّ (٣٤٢٦)، والنَّسائِيُّ في «الكبرى» (٩٩١٧)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

حسن»، زاد أبو داود: «فيقول -يعني: الشَّيطان- لشيطانٍ آخر: كيفَ لكَ بِرجلٍ قَدْ هُديَ وكُفِيَ وَوُقِيَ؟»).

هذا الحديث أيضًا هو في باب اليقين والتوكل ، فهذا الذِّكر العظيم يشرع للمسلم أن يقوله وهو على يقين بالله بأن يُحَقِّق له الهداية والكفاية والوقاية، وأن يُحَقِّق أيضًا العبد التوكل على الله والاستعانة به والالتجاء إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

قوله: (إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ)، أي: في كُلِّ مرَّة يخرج فيها من بيته، ومثل البيت المنازل الَّتِي ينزلها الإنسان في سفره، في فندق أو في غرفة أو نحو ذلك، إذا خرج منها يأتي بهذا الدُّعاء.

وقوله: «بِسْمِ اللهِ» هذه كلمة استعانة، أي: أطلب العون من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، و: «تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ» أي: اعتمدت عليه، وفوَّضت جميع أموري إليه سبحانه.

وقوله: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» هذه كلمة تفويض وتبرُّؤ من الحول والقُوَّة إلَّا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله: «يُقَالُ لَهُ: هُدِيْتَ وَكُفِيْتَ وَوُقِيْتَ» يجوز أن يكون القائل هو الله، أو أن يكون القائل ملك من الملائكة، والله تعالى أعلم.

وقوله: «هُدِيْتَ» أي: الطَّريق والحقَّ والصَّواب، «وَكُفِيْتَ» أي: ما أهمَّك من أمور الدُّنيا والآخرة، «وَوُقِيْتَ» أي: حفظت من شرِّ أعدائك من الشَّياطين وغيرهم.

وقوله: «وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ» أي: ابتعد عنه الشَّيطان، فيكون في عافية منه، وحماية من كيده وشرِّه.

فهذه دعوة عظيمة، وذكرٌ مبارك، يستحب للمسلم أن يقوله في كُلِّ مرَّةٍ يخرج فيها من بيته، مع اليقين والثِّقة بالله ليفوز بهذه الخيرات المذكورة في قوله: «هُدِيْتَ وَكُفِيْتَ وَوُقِيْتَ» وأنَّ الشَّيطان يتنحَّى عنه فيسلمَ من شرِّه.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

٨٤- وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: كَانَ أَخَوَانِ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ أَحَدُهُمَا يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ وَالْآخَرُ يَحْتَرِفُ، فَشَكَا المُحْتَرِفُ أَخَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ» رَوَاهُ التِّرمذيُّ(٥) بإسنادٍ صحيحٍ عَلى شرطِ مسلم.

«يحترِف»: يكتسب ويتسبب).

وهذا الحديث فيه خبر هذين الأخوين على عهد النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأنَّ أحدهما كان يأتي النَّبِيَّ ﷺ، أي: ليتعلَّم ويتفقَّه، ويستفيد من مجالسته، (وَالآخَرُ كان يَحْتَرِفُ)، أي: يقوم بالكسب ويتسبَّب في تحصيل الرِّزق، (فَشَكَا المُحْتَرِفُ أَخَاهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ)، أي قال له: إنَّه لا يعمل، ولا يحترف، ولا يكتسب، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ» أي: بإحسانك إليه، وإنفاقك عليه، ومساعدتك له.

وهذا فيه: التَّرغيب في مساعدة المحتاج من أهل العلم وطلابه، ولاسيما إن كان من القرابة، والنَّفقةُ على فقراء طلاب العلم بابٌ من أبواب الرِّزق، كأن ينفق مَن وسَّع الله عليه المال على حلق القرآن، أو حلق العلم، أو في طباعة الكتب العلميَّة، أو مساعدة طلاب العلم المحتاجين، فطالب العلم إذا ساعده مَن عنده المال، أتاح له فرصةً ليزداد من الطَّلب والتَّحصيل، بخلاف إذا لم يجد طالب العلم كفايته، فإنَّه لن يجد وقتًا ليزداد في العلم وفي تحصيله بسبب حاجته للكسب والتَّسبُّب، فإذا سُدَّت حاجته من قبل أهل الإحسان ، فإنَّ هذا يفيده بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى فائدة عظيمة في تحصيل العلم، ونفع المُتَعَلِّمين إذا حصَّل العلم.

فيستفاد من هذا الحديث: أنَّ النَّفقة على فقراء طلبة العلم يعدُّ من مفاتيح الرِّزق وأسبابِ نيله؛ لأنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال لهذا الرَّجل: «لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ» أي: بسبب إنفاقك عليه، واحتسابك في معاونته ومساعدته، ففيه أنَّ العبدَ يُرزق بغيره، كما في الحديث الآخر: «**وَهَلْ تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ**» رواه أحمد(٦).

---

(٥) رواه التِّرمذيُّ (٢٣٤٥)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

(٦) رواه أحمد في المسند (١٤٩٣)، وصحَّحه الألبانِيُّ.

هذا، ونسأل الله الكريم أن يوفقنا أجمعين لكل خير، وأن يصلح لنا شأننا كله؛ إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.